الفصل الرابع
أوراق الخريف

في مثل سني يشعر المرء وكأنه في المنطقة الخطرة القريبة من الموت أو في السنوات الخمس التي يحدث فيها من الوفيات الطبيعية أكثر مما يحدث على مدى عمر الإنسان. أجد نفسي في الخط الأول من المعركة ضد العدو الشرس الذي يقف في وجه الإنسان، وبمعنى آخر أشعر بأن الوقت قد حان ليرتب الإنسان أموره. . لقد حان الوقت لينجز الإنسان الأمور التي بدأ بها. لكن في مثل وضعي أجد أن الوقت المتبقي لي أصبح قصيراً جداً لإنجاز كافة الأعمال التي لا يزال يتوجب علي إنجازها: وهي ترتيب وتصنيف كافة الأمور المادية التي جمعتها خلال العقود السبع من العمر الجسدي والفكري. لا يزال يتوجب علي أن أجمعها وأرتبها على مدى ما تبقى لي من سنوات عمري؛ وذلك في جو كان حتى فترة وجيزة يسير بشكل حسن خلف حدود نطاق التجربة العامة. إذا قدر لي أن أعيش مئة عام فإنني أشك بأنه سيكون بمقدوري أن أتمم الأعمال التي ما زالت تلوح في الأفق أمامي. إنني مدرك أن ملك الموت لن يتريث عندما يطلب مني أن أضع قلمي وأكف عن الكتابة للمرة الأخيرة. لكنني سأفعل ذلك بكل الأسف وأنا على يقين بأنه لا يمكن لأي شخص آخر أن يتمم الأعمال التي لم أنجزها حتى ولو رغب في ذلك. لا يمكن أن تكون ملاحظاتي ومذكراتي اليومية تافهة على أي حال من الأحوال، لكن يمكن لمجرد لمحة سريعة على محتويات كتابي الذي نشرته في عام ١٩٥٥م تحت عنوان (المملكة العربية السعودية) أن تكشف عما أقصد.

لا يقل عدد الأشـخاص الذين ذكـرتهم في كتـابي تحت اسم محـمد عن مـئة شخص، عـلاوة على تكرار اسم سعـود في سبع وسبـعين مرة. هذا؛ كـما أنني ذكرت اسم عبدالله في حوالي ست وتسـعين مرة. كُل اسم من هذه الأسماء يرمز إلى شخصية لها ما يماثلها في تاريخ الجزيرة العربية. ومن يمكن له أن يتحدث عن مثل هذا القدر من المعلومات؟ ولكن مهـما يكن الأمر فلا يمكن لي أن أتذمر، فإن عدد الأعمال التي نشرتها بما فيها المجلدات بكامل العناوين والمقالات في الصحف والأعمال الأدبيـة والمساهمات في مراجعـة المجلات العلمية، إضافـة إلى الأعمال الأخرى التي أنجزتها والتي لم تخرج إلى العالم فهي بحد ذاتها تشكل جيشاً وجماً غفيراً من الأعمال الأدبية. ربما توفرت لي فرصة للعمل ولإظهار براعتي على نحو أكثـر مما توقعت. . وهذا ما يمكن أن يقـر به في نهاية المطاف الخـبراء الذين طلب منهم تقيـيم القيـمة النقدية التي وهبت لي كـمرتب تقاعـدي عن نصف المدة التي قضيتـها في العمل في قطاع الخدمة المدنية الهندية. جـاء ذلك عندما تقاعدت في عام ١٩٢٥م بعـلاوة زهيدة وضُعت في جـيبي الصغـير والتي شكلت ثلاثة عـشر ونصف المبلغ السنوي الذي كنت أسـتحقـه. كانت تلك نوبة طويلة استـمرت من عام ١٩٣٨م وحـتى ١٩٥٥م. وحسب ما أتذكـر أن وزارة المالية المعنيـة مدانة لي بدين ألتزم بدفعـه أدبياً إذ وصل ذلك المبلغ إلى ستة آلاف جنيـه إسترليني. ولعله من حـسن حظي أن أنظمة ذلك الوقت كـانت تمنع دفع تعـويض يزيد عن نصف المبلغ التقاعدي المكتسب: فإذا كنت قد خـسرت على صعيد الطرق الملتوية، فإنني قد عُوضت عن خسارتي بفعل حرية العمل ونطاق التأرجح، وأملي أن يستمر هذا التأرجح لسنوات عدة قادمة. فقد تمكنت من الحصول على مبلغ تعاقدي بلغ تقريباً ضعف السنوات التي تقاضيت بها مرتبي مقابل الخدمة الفعلية.

وكان معلمي في هذا المجال نائب المفوض الحاكم لمنطقة روالبندي وهو فليسوف وصديق قديم، إذ ضمن لي مرتب تقاعدي عن خمس وثلاثين سنة لقاء سنوات الخدمة الفعلية المماثلة التي قضيتها في مفوضية البنجاب. وهناك العديد من الحالات الأخرى المماثلة التي سببت للرسميين في الصندوق التقاعدي قلقاً بالغاً.

إن الأوراق الخضراء التي تتحدى صقيع وعواصف الشتاء القادم بقيت ثابتة على أغصان شجرة الحياة؛ وذلك لتؤكد على موت أوراق الأغصان التي أصبحت مجردة من زخرف الأزهار بفعل ريح الخريف والتي كانت تهب بشكل معتدل.

لماذا تسقط ورقة وتترك ورقة أخرى؟ لا جواب لهذا السؤال علماً بأن العوامل النشطة التي تقتل البعض وتترك البعض الآخر هي عوامل متعددة الوجوه. فهي تولد في كل مرحلة من مراحل عمر الإنسان المسببات الطبيعية للموت تماماً كما هي الحال في الطبيعة بشكل عام. يتم مواسم جني هذه العوامل في السنوات التي يكون فيها محصول عمر الإنسان أكثر نضجاً: ولنقل بدأ من أواخر الخمسين عاماً من عمر الإنسان حيث يبدأ المنجل في العمل وتزداد فاعليته مع تعاظم السنين.

بعدها يصبح موضوع من نجى من المنجل موضوع حظ أو أمر يتعلق بالقدر. كان الإنسان، منذ الأزل حليفاً نشطاً لملك الموت، تجلى ذلك بفعل الحروب التي يشنها، بفعل المجازر التي يقترفها مع غياب حسه الإنساني، وبفعل الآلات التي لا يسيطر عليها، والأدوات الأخرى المسببة للموت المفاجئ. ولا مجال للشك بأن الإنسان أبدع في هذا الدور القاتل، وعمل على نحو لم يسبق له مثيل على مدى نصف القرن الماضي الذي بدأ مع اندثار العهد الفكتوري. ذلك لا يعني أن الإنسان أصبح شيطانياً أكثر من أسلافه الذين تميز سجل أحداثهم بالطيب أكثر بكثير مما يتميز به سجل أحداثهم. ومع ذلك يمكن القول: إنه بالتأكيد تفوق عليهم في

استنباط وسائل التدمير على نطاق واسع. لم يحلم أسلافه أبداً بمثل هذه الوسائل، فقد أصبح الإنسان الحالي أكثر قسوة وغير مبالٍ بمشاهد الموت المفاجئ ومشاهد التشويه الجسدي المرعب بالإنسان. وأعتقد أن ذلك يشكل فرقاً واضحاً بين عالم اليوم وبين عالم أيام شبابي. في تلك الأيام كانت الحروب مع كل فظائعها أنواعاً من الرياضة الخطرة، إذ كانت توقعات النجاة فيها تفوق مخاطر الإبادة. ومن إحدى ذكريات طفولتي التي يتعذر نسيانها كانت الحادثة التي رافقت فيها والدتي إلى أحد البنوك في لندن لقضاء بعض الأعمال الخاصة بها. وهناك وقفت إلى جانبنا امرأة مرتدية اللباس الأسود وكانت تناقش مشكلتها مع موظفة البنك التي أبدت تعاطفاً معها. ولا زلت أتذكر ليومي هذا أن اسمها كان كامبل علماً بأنني لا أتذكر كيف عرفت أنها كانت أرملة ضابط في الوحدة الأسكتلندية كان قد قتل في إحدى معارك حرب البوير. كانت تلك هي المرة الأولى التي أجد نفسي فيها واقفاً في ظل الموت وشعرت حينها بصدمة بالغة. لم تسنح لي الفرصة بمشاهدة جثث الموتى ومشاهدة رجال يحتضرون إلا عندما بلغت سن الرابعة والعشرين. وجدت نفسي في ذلك السن أمام حادث تحطم أحد القطارات في الهند، إذ كنت في أول رحلة لي عندما اصطدم قطاران في منطقة قريبة من مصطفى أباد في البنجاب.

كانت الحرب العظمى لا تزال واعدة بمجزرة تحل بشباب العالم الذين تمت التضحية بهم في حمأة الإعجاب بآلة الحروب، تماماً كما كانت تُقَدَّم العذراوات والشباب الصغار في السن قرابين لآلهة الوثنيين عند العرب القدامى غير آبهين لعويل وصرخات وخوف الرجال. سلك الشقيقان الوحيدان مسلك رفاقهما فانخرطا في صفوف الجيش كما فعل من عرفتهم وأحببتهم خلال الأيام التي قضيتها في الهند. كان هؤلاء الرجال يُرسلون إلى موتهم بإهمال بلغ نفس القدر

من غير مبالاة باحتياجاتهم ومعداتهم. تجلت تلك الظاهرة في الحرب التي حدثت قبل ستين عاماً. إن ما سبب استيائي من اللجوء للحرب لتصفية المشاكل كان موت شقيقي وفناء مئات الآلاف من الرجال الذين قضوا نحبهم ليحل البؤس في أسر لا حصر لها. كانت الحرب من أجل خلافات انبثقت بين الأمم بسبب الطمع والتنافس الذي لم يكن يعني أولئك الرجال الذين استدعوا ليعانوا من ويلات الحروب.

لا يمكننا أن نوجه اللوم لهؤلاء الرجال لو أن الفرصة أتيحت لهم للتفكير أو اتخاذ القرار.

إن ما حدث كان شيئاً رائعاً وفظيعاً، وكان لا بد أن ينتشر في البلاد تجسد في نبوءة الأنبياء المزيفين والقساوسة الذين فرضوا صلاحياتهم بطرقهم الخاصة. كان الشعب مغرماً بأن يشاهد الأمور وهي تجري على ذلك النحو: ولكن ماذا يمكن أن يفعل المرء في نهاية الأمر؟ إن الكلمات التي قالها الرب إلى النبي إرميا تثبت صحتها بقوة الحقيقة نفسها التي تلفظت بها. فسرعان ما تم التخلص من التوجهات السلمية التي انبثقت عن أول كارثة كبرى حتى بدأ التحضير للمعركة الثانية الفاصلة بين قوى الخير والشر، والتي بدورها نثرت بذور كارثة أخرى كانت وشيكة الحدوث ليتبعها -دون شك- العديد من المصائب، خاصة إذا قدر للإنسانية أن تنجو من تجربة ثالثة لجنون عالمي شامل. إننا نتحدث عن السلام وفي الوقت نفسه نعد العدة لحرب يحفظ السلام.. وهكذا دواليك. وتلك هي الحلقة المفزعة التي لا نهاية لها. مثل الكلاب الشاردة في إحدى المدن الشرقية نجد أنفسنا منخرطين في قطيع منها لنهاجم منافساً آخر، ونستمر في فعل ذلك حتى نقضي على عدونا المشترك وبعدها ننقض على بعضنا البعض.

إن معبد الأمم المتحدة ما هو إلا مجرد بيت منقسم على نفسه، أو ربما يكون مثل برج بابل يدعي كل ساكنيه التزامهم وإخلاصهم لمثل الحرية والديمقراطية ولحقوق الإنسان دون أن يأبهوا بالمعاني الحقيقية لهذه الكلمات ولا لتفسيرات تلك العبارات التي يطرحها كل واحد منهم. وحسب وجهات نظرهم المختلفة فالعالم مقسم إلى تصنيفات لا يمكنك التوافق بينها: هناك الشيوعيون وهناك محبو الحرية وهناك الاشتراكيون والرأسماليون. تحظى كل من الاشتراكية والرأسمالية بفاعلية معترف بها على نطاق واسع وأصبح الناس ينظرون إليها على أنها سمات تميز ذكاء هذين الفريقين السياسيين الرئيسين في العالم. والجدير بالذكر هنا أن هذين التعبيرين موجودان على نطاق واسع، في هذه الأيام وخاصة في بلدان الستار الحديدي. فمفهوم الشيوعية -والتي هي في الواقع أكثر بقليل من مجرد تطور منطقي للاشتراكية- أصبح يتكرر بشكل مختلط وغير واضح في المحادثات التي يجريها الغرب مع الإمبريالية السوفيتية. يمكن أن تكون تلك الإمبريالية أكثر صرامة لكنها ليست أسوأ أو أفضل من نوعيات أخرى من أنماط الشر في الطراز القديم. لكن ماذا يعني تعبير (الشعوب المحبة للسلام) عندما تطلقه شفاه الذين يكررونه باستمرار وخاصة في عالم الشعوب الأوروبية الغربية. هل يشمل ذلك التعبير الشعب اليوناني في قبرص أو السود الأفارقة الأصليين في جنوب إفريقية أو مجاعة الماوماو في كينيا أو الشعب المصري أو المغربي أو التونسي أو يشمل عشرات الأماكن الأخرى في العالم.

إن الدلالة التي تميز هذه العناصر من خلال أنشطتها المختلفة والمعبرة عن حنقها على الفئات التي تحكمها وتسيطر عليها ليست هي الدلالة التي تشير إلى (حب الحرية) علماً بأن ما تريده هذه الفئات حقاً هو حريتها. ومن أجل هذا الشعار

نطلق عليهم اسم متمردين أو خارجين عن القانون أو رجال عصابات أو إرهابيين. . وما شابه ذلك. ويمثل ذلك في عيون الجزء الكبير من العالم العذر الكافي للدفاع عن الإجراءات القمعية واستنباط أشد العقوبات وإنزالها بحق النساء اللاتي تضبط بحوزتهن الأسلحة الفتاكة. . وبالتالي إقامة محاكم شعبية خاصة لتعزز من حق الحكام في عدالة صورية زائفة. تجلت النزعة الغريزية عند العالم بأسره وبشكل واضح عندما شجبوا تنفيذ حكم الإعدام في ستة رجال تمت إدانتهم، وأصدر بحقهم حكم بالموت لقيامهم بنشاطات معادية للحكومة الثورية في مصر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السعودية امتنعت علناً من تأييد أي وجهة نظر تتعلق بذلك الموضوع. لكن ماذا يفكر العالم بالإجراءات البريطانية في ظل أنظمة الطوارئ المطبقة في كينيا عند قراءة المقالة الواقعية التي كتبها مراسل صحيفة التايمز في التاسع والعشرين من تشرين أول عام ١٩٥٤م؟ كان قد كتبها بعد أن اطلع شخصياً على المشكلة في تلك المستعمرة، علمنا -وأفترض هنا أن الحقائق التي أوردها كانت سليمة- أنه في الوقت الذي تتم فيه محاكمة حوالي خمسين إرهابياً في الشهر الواحد تقوم قوات الأمن بقتل ما يزيد عن ثلاث مئة شخص في الشهر نفسه، كما يتم اعتقال حوالي ستة وأربعين ألف شخص دون تقديمهم للمحاكمة.

ربما يبدو التعليق على هذه الظاهرة أمراً زائداً عن حده، لكن ربما يطرأ على فكر الناس العقلاء أنه لا بد أن يكون هناك ثمة شيء منفر في ممارسات الحكومة الدنماركية. فمن الناحية الخلقية هناك فرق بسيط جداً بين إعدام ستة أشخاص بموجب قرارات قضائية وإعدام المئات من الأشخاص، لكن الخطأ ليس خطأ القضاة بقدر ما هو خطأ القانون. إن تدهور العدالة المطرد الذي يتم إذعاناً للمصالح

المكتسبة أو لبعض الإيديولوجيات قد أصبح سمة مميزة للعصر الذي نعيش فيه، ويمكن الإشارة بهذا الصدد إلى التحقيقات التعسفية التي قامت بها الحكومة الإسبانية وإلى أمور أخرى في تاريخ العالم الطويل لنثبت أن طبيعة الإنسان هي واحدة منذ أن انفصل الإنسان المفكر عن أبناء عمومته من حيوانات الغابات. فلم يَحُلْ دون رجوع الإنسان الحالي إلى حالته الهمجية سوى التقدم الفكري الذي تمكن بنو البشر من إنجازه. لم يكن اللورد بيفربروك مخطئاً كثيراً عندما حذر هتلر من أن الشعب البريطاني كان دائماً على استعداد لمحاربة أية جهة في أي مكان ولأي سبب، لكن ربما كان بيفربروك منجرفاً في إدانته المتعمدة لبني بجدته. ومن المؤكد أن هناك شعوباً أخرى في العالم تشاطر الشعب البريطاني نقطة الضعف هذه.

يميل الناس إلى نسيان مغالاة الإنسان التي حدثت في مرحلة من مراحل تقدمه الطويل الصعب نحو الحضارة، لكن من الصعب أن يكون لهذه المغالاة علاقة بمشاكل أيامنا الراهنة التي تهدد حضارتنا بالانقراض بسبب المهارة العلمية المتقدمة التي حققها بنو البشر.

وهنا أتذكر ردة فعل ابن سعود على الاقتراح الودي الذي طرحتُه عليه وقلت فيه: إن بإمكانه أن يقيم علاقة طيبة مع بقية دول العالم بشكل عام ومع بريطانيا على وجه الخصوص -باعتبار أنها كانت القوة الوحيدة التي لفتت انتباهه في عام ١٩١٨م- وذلك عن طريق القضاء على ظاهرة الغزو القبلي، والقضاء على ظاهرة انعدام القانون في بلاده. فأجابني بما كان لي علم به. إذ قال: بأنه كان قد قام فعلاً بوضع حد لتلك المشكلة عن طريق إنشاء حركة الإخوان قبل ست سنوات، وأنه استخدم تلك الحركة لإصلاح ذات البين بين القبائل. ونظر إليَّ وهو يغمزني

قائلاً: بأي صفة تعرض عليّ تلك النصيحة، وهل تأخذ في الحسبان ما كان يحدث آنذاك في كافة الدول الأوربية! لم تسفر الغزوات والمعارك في الجزيرة العربية عن خسائر وضحايا بأعداد كبيرة، علاوة على أنه لم يعد يُسمح بقيامها في المناطق الخاضعة لحكمه. ولم تكن تلك الغزوات سوى ماضٍ بريء بالمقارنة مع الصراعات التي سادت فرنسا وبلجيكا ومناطق أخرى من العالم، والتي يذهب ضحيتها عشرات الآلاف من القتلى والمشوهين يومياً. جعلني ذلك التحدي للحضارة المعتدة بنفسها أتساءل فيما إذا كان العرب فعلاً هم المتوحشون الذين اعتادت الدول الأوربية أن تنظر إليهم على ذلك النحو؟

إن ما جعل الحس الإنساني يتبلد تجاه الموت المفاجئ -وهي الظاهرة التي تتميز بها المجتمعات المعاصرة- لم يكن ليتعلق بأي حال بالحرب التي دارت على مدى نصف القرن الماضي. فقد تغلغل التطور الصناعي في تبلد هذا الحس، وفي قساوة قلب البشر، وأصبحت أحداثه المتعلقة بالمشاعر تحظى بانتشار واسع فاق انتشار مثيلاتها في الأيام الخوالي.. إذ أصبح من الممكن أن تحدث مأساة تقع في أحد المناجم، أو انفجار في أحد المصانع رعباً وحزناً لدى عدد كبير من الناس تؤكد على شخصية البيئة الاجتماعية المنكوبة. وحيال هذه المأساة يقف العالم بأسره متجاهلاً تلك الكوارث. أصبحت في العصر الحاضر دول العالم تهتم بأخبار تحصل عليها من مصادر رفيعة، وحتى من حكومات أجنبية وحكام وملوك آخرين لدرجة أن هذا النوع من الأخبار يحظى برواج أكثر من رواج خبر البؤس والمعاناة التي تحيق بالفئات الاجتماعية المنكوبة. وهذا الأمر ينطبق أيضاً على الكوارث الطبيعية مثل الفيضانات والصواعق والهزات الأرضية وثوران البراكين وما شابهها. تحدث هذه الأمور دون أن يتحول الناس عن مجرى حياتهم اليومية المزدحمة

بالمشاغل أو ليتأسوا على هؤلاء الضحايا أو حتى ليفكروا بمسببات هذه الكوارث أو بالأماكن التي نزلت بها. ربما تقوم إذاعة ما بتغيير برنامجها الطبيعي لتبث موسيقى جنائزية أو لحناً حزيناً، لكن باقي المحطات تستمر في بث موسيقى الجاز وأصوات المزامير. ونادراً ما يحرك خبر تحطم طائرة ما وقتل جميع ركابها مشاعر التعاطف عند الناس ويبقى التدمير الصارخ لحياة الإنسان على الطرقات مقبولاً على أنه أمر حتمي ملازم للانتصار الذي حققته عبقرية الإنسان الخلاقة. لقد انقضت أيام التلويح بالراية الحمراء المنذرة بالخطر في وجه أبناء الطبقات المتواضعة التي تستخدم تلك الطرقات. ونحن في بريطانيا اعتدنا على حدوث إصابات تصل في الشهر الواحد إلى عشرين ألف إصابة ناجمة عن حوادث الطرق.

حدث في فترة من الفترات أن وصل عدد القتلى في الشهر الواحد إلى المستوى المذعر، إذ كان يموت بمعدل شخص واحد في الساعة الواحدة. وليس لي وسيلة لمعرفة العدد الإجمالي لمثل هؤلاء القتلى في العالم، علماً بأن ذلك العدد لا يمكن أن يقل عن ضحايا معركة من معارك العصر الحديث. ففي بريطانيا وحدها حدث خلال الأشهر الستة من المرحلة الزائفة للحرب العالمية الثانية أن وصل عدد القتلى بسبب حوادث الطرق إلى رقم أعلى من عدد القتلى الذي كانوا في الخدمة العسكرية الفعلية. من الواضح أن اتخاذ إجراءات فاعلة سيؤثر بشكل جدي على مصالح أصحاب صناعة السيارات، لكن يبدو أن الجميع متفق على ضرورة الاستمرار في صناعة السيارات بكامل طاقتها الإنتاجية لكسب الدولار والعملات الأجنبية؛ وذلك لضمان حماية استمرار الطاقة الإنتاجية في حال حدوث حرب ما. وتلك ظاهرة تعد في حد ذاتها الظهير المساند للعجلة الصناعية. وعليه كان علينا أن نتحمل وفاة ألف وسبع مئة طفل خلال عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٣م من جراء

حـوادث الطرق ونحن ننظر إلى عـجـز حكومـتنا في التـعامـل مع تلك الظاهرة ومعالجتهـا. يبدو حقاً أن الموت بذلك العنف قد أصبح حقيـقة واقعة وظاهرة من إحدى ظواهر العـصر الحـديث لدرجة أن الجيل الحـديث لا يستطيع أن يسـتوعب الصدمة التي سببها هذا النوع من الموت في أيام رخاء عهد الملكة فيكتوريا.

ومع هذا تجدنا الآن نواجـه -وبنوع من غير مـبالاة جبـرية-، احتمـال حدوث كارثة أكثر ترويعاً من أي كارثة سبق لنا أن مررنا بهـا: وهي احتمال إبادة جماعية حقـيقيـة ناجمة عن اسـتعمال الـسلاح النووي والصواريخ المخـتلفة الأنواع. هذا وتجدنا، -مثل عصفور شُده بمشاهدة أفعى تتلوى أمامه-، ننظر والرعب الكبير في أعيننا ونحن نحـضر وننتج أدوات الموت والتعـذيب. نفعل ذلك ونحن على يقين بأن وسائل الدمـار هذه ستستـخدم من قبلنا لتـدمير بعضنا البـعض. . نفعل ذلك ونحن نتخيل بشكل مستمر ماذا سـيكون حالنا عليه عندما تحدث الكارثة. تتذكر الناس مجـازر هيروشيمـا ونجازاكي على أنها مـجرد بادرة نصر نهـائي في الحرب العالميـة الثانية دون أن يبـدي أحد صرخة مـؤثرة، احتجـاجاً على هذه الفظائع أو يصرخ ليشجب ويدين المسؤولين عن صنع تلك القنابل. إننا في الواقع لا نعلم من كان هؤلاء الصانعين على الرغم من أن الأساطيـر تسند الفضل في صنعها للرئيس ترومان. من المحتمل أن يكون ترومان هو صاحب القـرار النهائي في استخدامها. وإذا كانت تلك هي الحقـيقة فعلى ترومان أن يتحمل عـواقب عمله وأن يقف أمام محكمة عدل أسـمى من أي محكمة عرفها بنو البشر. سـيقف ليحاكم ليس على عمله الذي قام به في ذلك الوقت بل على ما ترتب على ذلك العمل من عواقب؛ لأن الباب قد انفتح على مصراعـيه لجرائم مماثلة، وربما لجرائم أبشع منها يمكن أن تحدث في المستقبل، التي ستبدو أمامها جرائم هتلر وموسوليني تافهة. من الغريب

فعلاً أن نرى العالم الذي احتج بقوة على استخدام الغاز السام في الحرب العظمى، ونجح بالفعل في حظر ذلك الغاز عن طريق التوصل إلى اتفاقية دولية يدير ظهره الآن ولا يتصرف حيال إمكانية حدوث شر وخطر أكبر من ذلك بكثير، كما أنه من الممكن أن لا يستخدم السلاح نفسه الذي استخدمه ضد الغازات السامة؛ علماً بأن الاتحاد السوفيتي تقدم باقتراح للتوصل إلى مثل ذلك الإجراء.

إنه من المستحيل الترتيب والإعداد لتفتيش المخازن والأسرار العسكرية الموجودة عند بلد من بلدان العالم، لكن العالم لم يواجه مثل هذا الشرط عندما اتحد وقرر حظر استخدام الغازات السامة، إذ كان الحظر بحد ذاته كافياً لمنع معاودة استعمال ذلك الغاز. حدث ذلك على الرغم من وجود مخزون من ذلك الغاز عند تلك الدول وهو جاهز للاستعمال في حال استخدام الدول المعادية الغازات السامة في الحرب. من الصعب على الرجل العادي أن يفهم عدم إمكانية التوصل إلى شجب وإدانة أخلاقية للأسلحة النووية، علماً بأنه لدى كافة الدول القدرة على الرد بالسلاح النووي إذا استخدم من قبل طرف آخر. على أية حال فليس هناك أي ضرر من فرض حظر دولي على استخدامه طالما أن أول دولة تستخدمه ستوسم على أنها الدولة المجرمة. ولكن كما هو واقع الحال، فقد علمنا أن قيادة أركان الناتو -منظمة اتفاقية شمال الأطلنطي- مخولة في أن تضع طائراتها في حالة تأهب على افتراض أنه سيتم استعمال السلاح النووي في الحرب العالمية التالية. لن نعرف من قبل أي دولة من دول الستار الحديدي ستطلق أول قنبلة نووية إلا بعد انفجارها. . كما أن العديد من الناس سيموتون قبل أن يعلموا ذلك! يمكن أن يكون هذا التحذير بمنزلة استشراقة مبهجة وخاصة للشعوب القريبة من المقلاة التي سينصهر فيها البشر!

ومع بداية هذا القرن ستكون الدول قد اهتمت بشكل أكبر باحتمالات حدوث هذه الحالة، وعندها سيكون الاستقلال الفردي في الفكر والتصرف العلامة المميزة للمسيرة التعليمية والتربوية في ذلك العصر. في السابق لم تكن الإجراءات التربوية منتشرة ومتوافرة لجماهير هذا البلد ولجماهير بلدان أخرى. . ولكن من متناقضات الأمور أن ظفرت جماهير عامة الشعب بفرص كبيرة لتتعلم، لكن ربما زادت تلك الفرص من النسبة الإجمالية للأمية بين أبناء دول العالم، ولم تفعل أي شيء لتعمق من قدراتها الفكرية: فكبار المفكرين والمعلمين لا يزالون كما كانوا على مدى آلاف السنين من الحياة المتحضرة وسيستمرون على ذلك الحال، معتمدين على خبرة أسلافهم ليرقوا ويحققوا المزيد من الإنجازات في المجالات العلمية والفنية، لكن أدوات التوجيه -ولا أقول التعليم بالمعنى الدقيق للكلمة- استخدمت على نطاق واسع لإخضاع الجماهير للنظام ولتوجيهها إلى المسالك التي ما فتئ العلماء والأمراء والوزراء في التركيز عليها لتخدم مصالحهم؛ وذلك منذ نشوء الحقيقة.

احتلت الحملات الإعلامية والدعائية في أيامنا هذه مكانة التدريس والتثقيف، وهناك ثمة فجوة بين الفنان ليوناردو دافنشي والإذعان الصادر عن الحزبين البريطانيين لإعادة تسليح ألمانيا. ظهرت تلك الفجوة بعد حربين شنتا ضدها باعتبار أنها كانت حاجزاً يقف في وجه الشيوعية. ويبدو أننا نسارع إلى الافتراض بأن نظام الحزبين هو النظام المثالي المعبر عن الديمقراطية، علماً بأن غياب العناصر المستقلة في البرلمان وتقليل دور حزب الليبراليين إلى حزب ميت غير فاعل -علماً بأن عددهم كان في الماضي كبير- تشكل جميعها عيوباً جسيمة في نظامنا السياسي. لقد تمادينا في الضوابط الضرورية للحفاظ على مثل هذا النظام، إذ

ترافقت تلك الضوابط مع إغراءات ماليـة جوهرية تهدف إلى التطويع. وقد بلغ بنا التمادي لدرجـة أننا حولنا البرلمان إلى نوع من الخدمـة المدنية رفيعـة المستوى، ولم يعد برلماناً، بل أصـبح مجرد مـجموعة من الوزراء يتـحكمون في مصـائر البلاد. وهذا الوضع لا يختلف عن الوضع الحاصل في الدول الفاشستية التي تخضع لحكم الحزب الحاكم، والتي كانت ومنذ زمن طويل قد تخلت عن مهزلة السيطرة البرلمانية على السيـاسة والشؤون الإدارية. فعلى الرغم من الـسلبيات العمليـة للنظام -فمن المحتـمل أن يكون التقليد الفرنسي المـتبع في تمثيل الشعب عن كل وجـه من أوجه الرأي العام في مجلس النواب أكثر انسجامـاً مع المثل الديمقراطية من انسجامها مع أنظمة الحزبـين أو الحزب الواحد- يمكن أن تكون التغـيرات المتكررة التي تطرأ على الحكومة شيئاً مـزعجاً أو بغيضاً، لكن النظام يبقي على الزمرة الحـاكمة واقفة على ساقـيها في كافـة القضايا التي تؤثر في المصلحـة العامة. لعل مـا يحدث في واقع الأمر هو المبـالغة في فضائل الديمـقراطية، وإن التاريخ مليء بالحـالات والأحداث التي تتميـز بحكم الأقلية وحتى بحكم الفرد المطلق. وسجلت تلك الحـالات مثلاً متكرراً في كل نوع من أنواع الحكم بما فيها الحكم الديمقراطي. وهنا أقول:

«ليتنافس الأغبياء في كل شـكل من أشـكال الحكومة

فالحكم الذي يدير أموره بالشكل الأمثل هو الأفضل»

إن المشكلة الحقيقية في الأنظمة الديمقراطية هي أنها تركز اهتمامها على المشاكل المحلية الداخلـية التي تتصـارع عليها الأحـزاب المتنافسة صـراع الكلاب والقطط. ويبقى مجال الشؤون الخارجية على أهميته أقل المجالات المستفيدة من نضال الحزب الحاكم؛ وذلك لأن أعـضاء البرلمان ينـتخبون وفـق تصرفهم مع القـضايا اليومـية الرئيـسة المحدودة. وحـتى موضـوع نقض أو إبطال المجريات الـسياسـية المتعـلقة

بالقضايا الخارجية الكبيرة فتتم الموافقة عليها بقليل من التذمر غير المسموع الذي يصدر عن جانب المعارضة تماماً كما حدث في القضايا التي تتعلق بمصر والهند التي أدت فيها حادثة الإلغاء الرسمي للسياسة الوطنية -التي نادى بها أحد الأحزاب ضد الحزب الآخر الذي كان يتسلم زمام السلطة- إلى خلق معركة عنيفة على أعلى المستويات. لا أستطيع أن أتذكر حالة واحدة حدثت على مدى الأربعين سنة الماضية تعرضت فيها الحكومة الحالية إلى تحدٍ جادٍ من قبل المعارضة حول قضية رئيسة ذات دلالة بارزة على الصعيد المحلي. ومع ذلك أقول: إنه حدثت أمور من ذلك النوع لكنها لم تعلق في ذاكرتي. إن الجدل الذي أدى إلى تشكيل حكومات الائتلاف خلال الحربين العظيمتين اللتين شهدهما هذا العصر لا يندرج تحت هذا التصنيف. لكن يكفي هذا القدر من التأمل والاستغراق في التغييرات الرئيسة الخاصة باستشراف دلائل المستقبل والتي حدثت في السنوات التي تسعفني الذاكرة باسترجاعها.

قضيت معظم هذه السنوات بعيداً وبعيداً جداً عن الازدحام الهستيري الذي تجمهر على ضواحي الإمبراطورية البريطانية القديمة وعلى مناطق الجزيرة العربية. حدث وأن تحمست في إحدى المرات لألقي بنفسي في معترك الحياة السياسية البريطانية. وأعتقد أنه كان بإمكاني أن أخدم القضية الوطنية بما لدي من علم وخبرة في بلاد الشرق، وبما أحمله من وجهات نظر تتعلق بالسياسة البريطانية الاستعمارية والإمبريالية. لكن لا يمكنني الادعاء بأن طموحاتي لقيت الكثير من التشجيع. ومع مرور الأيام اكتشفت أن تصرف حزب العمال في القضايا التي كنت مهتماً بها لم يكن مختلفاً عن التصرف الذي تميز به حزب المحافظين. علاوة على أنه كان متأثراً ولدرجة كبيرة بمنحى الخدمة المدنية. كما كنت على خلاف مع

الرسميين القياديين في ذلك الحزب خاصة حول سياسته تجاه الدول العربية التي بدأها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. وأخيراً، ففي عام ١٩٢٥م انقطعت علاقتي مع الحكومة بسبب تقاعدي من الخدمة المدنية الهندية. وفي نهاية ذلك العام كان ابن سعود قد تفهم ولدرجة كبيرة التكهنات التي كنت قد أعربت عنها بخصوص مستقبل المملكة والتي جاءت إثر دخوله مناطق الحجاز. كنت قد عدت لخدمته عشية تتويجه ملكاً على الحجاز، ووجدت نفسي على اتفاق تام مع سياسته الرامية إلى إبقاء إدارة تلك المناطق بأيدي أبنائها المحليين دون اللجوء إلى مساعدة أجنبية أو استشارة أجنبية. وكنت من مؤيدي تطبيق تلك الفكرة على صعيد مختلف الدول العربية التي أصبحت -كنتيجة للحرب- مستقلة عن تركيا. أدركت وبوضوح أنَّ أيّ توجه للاعتماد على بريطانيا أو على أيّ مساعدة أجنبية يمكن أن يسفر وببساطة عن تغيير في القادة. وذلك ما حدث بالضبط في كافة دول الانتداب في الهلال الخصيب. فلم تحصل العراق والأردن على استقلالها التام الكامل إلا بصفة فخرية. منعتني وجهات نظري من السعي أو البحث عن أي نوع من العمل في الحكومة السعودية الجديدة، في حين كان من الواضح تماماً أنه لم يعد هناك مبرر لاستمراري في اكتشاف ما كنت قادراً على تنفيذه خلال سنوات الحرب. وبمعنى آخر أنه لم يعد لي ما يمكن أن أفعله في المملكة العربية السعودية. . وعندما غادرت جده متوجهاً إلى بريطانيا في بداية صيف عام ١٩٢٩م لم تكن لديَّ النية في العودة إلى الجزيرة العربية.

بدأت في تلك الفترة أنظر في إمكانية العمل في المجالات السياسية، لكن جاءت النتائج على النحو الذي سبق وأن شرحته - علماً أنه كان من الممكن أن أستمر على ذلك النهج لولا تدخل عناية الله: حدث عندما كنت في طريقي

لتناول طعام الغداء في نادي "الخدمات المتحدة لشرق الهند" أن سمعت صوتاً لم أسمعه منذ سنوات طوال يناديني. . وكان ذلك صوت صديق قديم حميم يدعى آر آي فشر. أصرَّ فشر على أن أتناول الغداء معه في نادي السيارات الملكي، وقال بأن لديه موضوع عمل يود أن يفاتحني فيه. وكانت نتيجة ذلك اللقاء ولقاءات أخرى تمت مع عدد آخر من الأصدقاء أن عدت إلى جدة في خريف العام نفسه. حدث في ذلك العام أيضاً أن تم اختياري لعضوية المجمع العلمي الأدبي. كان ذلك العام ميموناً بالنسبة لي إذ كنت قد حرقت كل زوارقي دون أن تكون لديَّ أية فكرة عن كيفية تأمين سبل العيش لزوجتي وأطفالي الأربعة.

وفي جدة -بعد أن أتممت الترتيبات الضرورية الأولية بما فيها الحصول على إذن من الملك- أنشأت "شركة الشرقية المحدودة" برأس مال إجمالي بلغ أحد عشر ألف جنيه إسترليني وبإسهام بلغ ثمن السهم فيها عشرة شلنات وأصبحت بذلك أول مدير لها. سأتحدث عن قصة ثراء تلك الشركة في كتاب آخر. لكن يكفي هنا أن أقول إن إنشاء هذه الشركة حدد منحى عملي ونشاطاتي التي ما زالت حية. وحدث فقط ولمرة واحدة أن تعاملت مع الأمور السياسية، وكان ذلك خلال الأيام الحساسة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية. وكانت النتيجة أن رفضني -وبشيء من التحقير- المقترعون الذين وزعوا أصواتهم بالتساوي على المرشحين الآخرين. على أية حال كانت الجزيرة العربية تذوي ورضخت لها دون أي تذمر، علماً بأنه خلال سنوات الحرب التي قضيتها في بريطانيا أدليت ببعض المحاضرات التي تحدثت فيها عن مختلف المرشحين الذين كانوا يمثلون حزب الكومنولث الذي لم يعش طويلاً، والذي كان يترأسه السير ريتشارد آكلاند الذي استقال وكان محقاً

في استقـالته، وانضم إلى حزب العمل وانتخب في الوقـت المناسب ليكون عضواً في مجلس العموم.

إذا كانت السيـاسة البريطانية وكـما هي الحال، ليست مـهنتي أو صنعتي فليس بوسعي أن أتذكر من الفـرص التي أتاحتها لي المملكة للعمل في المجـال السياسي إلى جانب النشاطات الأخرى الممتعة التي كـنت أقوم بها. ولكن سلبيات مقدرتي على استرجاع مـا قمت به من أعمال على مدى الأربعين عامـاً الماضية -والتي ما زالت قائمة على نحو من الجدل المستمر- تتجسد في إدراكي أن من عاصروني في العمل كانوا يخرجون من نسقنا واحداً بعد الآخر. . لم يعد هناك أحد إلا شخصاً واحداً انتهى به السـباق وسط إحساس بالهـبوط المفاجئ. وأمام الجمـهور لم تعد لديه الرغبة في استطلاع النشاطات التي كان الجيل القديم يزاولها.

من الغريب حقاً أن يذكر المرء أنه بعد وفاة الملك في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) في عام ١٩٥٣م لم يبق في الواقع هناك أي شخص سوى أنني شخصياً لأقوم بدور بارز في الخلافـات الحادة التي ظهـرت بخصوص الخـرمة، والتي امتـدت بين عام ١٩١٨م وعـام ١٩١٩م. شـاهدت عن كـثب التطورات التي أدت إلى الانتـصـار النهائي الذي حـققه السـعوديون. والشخـصيات الرئيـسة في هذه الدراما المشـوقة كانت: اللورد كرزون، وأدوين مـونتاغيو، والسير بيرسي كـوكس، والسير آرنولد ويلسون، والسير ريجنال وينغـيت، والملك حسين، والملك علي، والملك عبد الله، والملك فيـصل، وابن سعود، ودي هوجارث، وجـيرترود بيل، والسيـر جان شك بيرغ، ولورنـس، والكولونيل سي وولتون، والسـيد طالب، وجـعفر العـسكري، ونقيب بغداد. ارتحل جميع هؤلاء عن مسرح الحدث كما ارتحل أيضاً السير غيلبرت كلايتون، وجورج أنطونيوس اللذان أديا دوراً في المشاهد الأخيرة من تلك الدراما.

مات الملك فؤاد، وأطيح بالملك فاروق، وتم اغتيال الإمام يحيى في اليمن على يد عبدالله بن الوزير الذي ادعى الحق في الحكم، لكنه أعدم لاقترافه تلك الجريمة. منيت الساحة العربية بكارثة فقدان العديد من كبار الشخصيات المرموقة، كما لا يمكن القول: إن من خلفهم من الرجال في تحمل المسؤولية كانوا أنداداً لهم، لكن الاستثناء الوحيد الذي يمكن الإشارة إليه هنا تجسد في شخص الرئيس جمال عبد الناصر وزملائه من الثورة المصرية الذين لا يزالون في قفص اتهام محكمة التاريخ. ويمكن أيضاً أن نضع في الخانة نفسها الكولونيل السوري أديب الشيشكلي لولا أنه أُطيح به في مرحلة سابقه لأوانها. أما بالنسبة للبقية فقد فشل الجيل الجديد من الممثلين على مسرح أحداث الجزيرة العربية فشلاً ذريعاً في طرح ممثل يتمتع بقدرات من الطراز الأول، كما أن القلائل من شخصيات النظام القديم كانت لا تزال على قيد الحياة لكنها تراجعت واستقالت من معترك الأحداث. ومما يمكن أن يكون أيضاً بمنزلة استثناء ملحوظ هو الجنرال نوري باشا السعيد الذي خاض جولته الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة بصفته رئيساً لوزراء العراق. كان بذلك يتحدى تقلبات السنين تماماً كما يفعل قس دنوي. كان نوري السعيد في تلك الفترة بمنزلة قوة يعتمد عليها داخل دائرة السياسات العربية؛ ذلك لأنه كان لا يزال في خضم حرب عظيمة. كان جميل المدفع لا يزال على قيد الحياة وانخرط في وسط السياسات العراقية علماً بأنه لم يكن مشهوراً مثل نوري السعيد. كان جميل المدفع هذا شخصية أخرى من شخصيات تلك المجموعة الشجاعة. فاز السيد جميل المدفع بجائزة الصليب البريطاني العسكري لكن المحكمة البريطانية العسكرية حكمت عليه بالموت لمشاركته في مجزرة تلعفر التي حدثت في انتفاضة عام ١٩٢٠م. عُين جميل المدفع على أثرها في منصب إداري بارز في حكومة

الانتداب البـريطاني المشرفـة على مناطق عبـر الأردن. ثم عاد أخـيراً إلى سـاحة النشاط السيـاسي في العراق ليصبح رئيساً للوزراء ولأكـثر من مرة. ولا بد من أن نضيف إلى هذين الشخصين السير كنهان كراون واليز والسير ريدر بولارد بصفتهما محاربين قديمين على مسرح الأحداث العـربية. كان بولارد صديقاً لي خلال الأيام الأولى من سنوات الحرب، وكان السير كراون واليـز خليفة لي في منصبي بصفتي مستشاراً لوزارة الداخلية في بغداد، حدث ذلك عندما عاد فيصل إلى بغداد بصفته ملكاً على العراق بـوصاية من الحكومة البـريطانية. تقاعـد كل منهما من الخـدمة ليلقيا بنفسيهما في عمل آخر وسط ظروف ربما تكون أكثر ملاءمة لشخصيتهما من الظروف التي هيئتها لهما مناطق الشرق العربية.

أكنُّ لكل منهمـا الكثير من التـقدير والاحترام، لـكن ليس لدرجة أن أتفق مع وجهات نـظرهما في مواضيع كـان لي رأيي الخاص بها. كان بولارد، من وجـهة نظري ومن وجـهة نظر العـديد من أصدقـائي العـرب، أفضل دبلومـاسي ترسله بريطانيا إلى المملكة العربية السعودية خلال فترة حياتي. ولم يكن هناك من وجهة النظر البريطانية أفضل من ترشيح بولارد لتمثيل الجانب البريطاني في لجنة التحكيم التي أسندت إليها مـهمة تسوية مشكلة البريمي، علمـاً بأنني أرتعد وأرتجف كلما فكرت في الإخفاق الذي نجم عن تنبيهه من وقوفه إلى جانب قضية الشيطان. أما بالنسبـة لـ كورن ويليس فكان دائمـاً معتـدل الرأي ويميل للحس القضـائي. كان تمسكه الشديد في أمـر قضائي مـا يثير حنق الهـيئة القضـائية، لكنه كان بالنسـبة لعمـلائه وموكليـه بمنزلة ثروة لا تقدر. كـان فيصل والحكومـة العراقـية تدين له بالعرفان، والآن قد أصـبح البنك البريطاني في منطقة الشرق الأوسط يعـتمد عليه بصفتـه أحد ركائز المحكمة المتعلقة بنشـاطاته في مناطق الشرق. ولم يبق إلا رجل

واحد من رجال الأيـام الماضية التي خضت فـيها تجاربي في الجزيرة الـعربية. إن شخصـية ذلك الرجل وسجله المتميز في الخـدمة يؤهلانه بأن يحظى بالمكان اللائق في صرح الشهرة والمجد.

لا أستطيع أن أقول بأنه كان من الذين عاصـروني ولم يكن بالمستوى نفسه الذي تحدثت به عن الأربعة الآخرين؛ ذلك لأنه عندما قدم من السودان إلى بلاد الرافدين مع نهاية الحـرب العظمى كان طاعناً في السن وحكيـماً. يدعى هذا الرجل السـير ادغار بونهام كارتر(١) وكان قد أتى ليعيد ترتيب وزارة العدل في البلاد التي لم تكن فاعلة أبداً في أيام الحكم العثماني، وغمرتها الفوضى خلال فترة الحركات الثورية. وأخيراً تقاعد إدغار ليتمـتع بأملاكه مثل أيِّ إقطاعي في بريطانيا. ومن الممكن أيضاً أن تكون ذكرياته في العـمل القضائي الطويل والمشـرف قد أثرت على الدور الذي أداه في مرحلة سياسـية محضة، لا يمكنني ولا يمكن للكثير من الآخـرين نسيانها. رأى إدغار بأن عليه أن يصـمد في قلعة بغداد خلال فـترة من أحلك الأزمات التي مرت بـها بلاد ما بـين النهرين. إن النزاهة التي فـرضت عليه التـخلي عن المهـمة البغيـضة كانت في الواقع العامل الرئيس الذي تمكن من خـلاله من إحلال الهدوء على الرغم من الاضطرابات العارمة والمكائد والدسائس. كان السير بيرسي كوكس وبرفقته جيرترد بل، وجعفر بـاشا وآخرون موالون للأشراف الحاكمين، قد غادروا بغداد لحضور مؤتمر في القاهرة دعا إليه السيد ونستون تشرشل، وزير الدولة لشؤون المستعمرات البريطانية. وكان ذلك في ربيع عام ١٩٢١م. وانتشرت إشاعات مفادها أن المؤتمر يمكن أن يسفر أو ربما أسفر عن ترشيح الحكومة البريطانية للشريف فيصل

(١) توفي في عام ١٩٥٦م. (المؤلف).

ليكون ملكاً على العراق على الرغم من التأكيدات التي سبق وأن صدرت عن الحكومة البريطانية التي كررت فيها مراراً بأن الشعب العراقي نفسه سيقرر بكامل حريته شكل وهيكل الحكومة والشخصية التي ستحكم البلاد مستقبلاً، ذلك إذا قرر الشعب أن يكون الحكم في بلاده حكماً ملكياً.

وقد انزعج من هذه التلميحات التي صدرت عن قرار المؤتمر في القاهرة كل من نقيب بغداد الذي كان آنذاك يشغل منصب رئيس مجلس الوزراء في الحكومة العراقية المؤقتة، وسعيد طالب الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية. وكنت أنا شخصياً من نقل إلى الشعب العراقي الضمانات البريطانية التي أشرت إليها آنفاً، وها أنا الآن أقدم إلى السير إدغار مذكرة مفادها أنه ليس لديّ خيار سوى أن أستقيل من منصبي إذا اتخذ المؤتمر قراراً بإلغاء كافة تلك الضمانات. تفهم السير إدغار للقضايا الحساسة المطروحة، كما تفهم احتمال قيام القادة المتأثرين بذلك القرار بانقلاب أو بهجوم مفاجئ حتى ولو كان ذلك احتمالاً ضعيفاً. من بين هؤلاء القادة كان سعيد طالب الذي يتمتع بشعبية كبيرة من أتباعه في البلاد. تمكن السير إدغار بقدر كبير من البراعة والصبر من تهدئتنا وإبقائنا في مناصبنا إلى أن عاد المبذرون من مؤتمرهم في القاهرة، ومع قدومهم انكشف السر وسرعان ما تم اعتقال سعيد طالب وتم ترحيله نتيجة لإشاعة تناقلتها الألسن من أن فيصلاً غادر جدة، وكان في طريقه إلى البصرة على متن سفينة حربية بريطانية. استمرت تلك الشائعات إلى أن وصل إلى البصرة، واستمرت مهزلة الانتخابات الحرة وحوفظ عليها حتى النهاية. رضخ النقيب بفعل الدبلوماسية المحنكة التي نهجها السير بيرسي كوكس، أما أنا ففضلت الاستقالة من منصبي على أن أتلاعب في الانتخابات القادمة. كان من غير الممكن أن تسير الأمور بسلاسة لو لم يتدخل السيد إدغار ويمنع مجريات الأمور من الانهيار.

من الناحية العملية كانت كافة الشخصيات البارزة التي ذكرتها سابقاً -والتي يجب أن أضيف إليها الآن السادة هيوبرت يونغ، وستيوارت نيوكومب، ورونالد شورز- مؤيدة لمعسكر الأعداء باستثناء ابن سعود، وهي حقيقة دل عليها الانتصار النهائي الذي حققته الجزيرة العربية. لم يشك أحد في قدراتهم وذكائهم وصلابتهم. وقف السعوديون بصفتهم مجموعة من المواهب التي لم يسبق لها وأن ظهرت على أي مسرح سواء كان في أيام السلم أو في أيام الحرب. كان الانتصار الذي حققوه بمنزلة المعيار الذي يقاس به فشلهم. وهنا أقول: إنه لو كان ابن سعود رسول تلك الحركة لكنت أنا الصوت المنادي في البراري، وبالتالي أكون الشخص المستهدف لازدرائهم. لكن أعدائي لا يستحقون رحمة الله لما قاموا به من إجراءات استهدفت تجزئة الجزيرة العربية، فعملوا على زرع ثوابت سيطرتهم هنا وهناك وفي مناطق مختلفة من أطراف الجزيرة. فعلوا ذلك ليقتلوا -وإلى الأبد- الأمل في الوحدة العربية التي سبق وأن رفعت قامتها في وجه الأتراك.

وليكن الأمر مهما يكن، فقد عشت يومي وتجربتي وكانت لهم ما جنته يداهم. لكن لو قدر للأوائل أن يعيشوا ليشاهدوا التسيب والفوضى اللتين انبعثتا عن النظام والتقشف الذي شهدته تلك الأيام لما أعجبهم الحال. لكن العرب الضحايا نالوا من أعدائهم، وأصبحوا اليوم يرقصون على أنغام مزاميرهم في مشهد لا يمكن أن يكون دالاً على الثقافة والتحضر، لكن بالنسبة لي فأنا أفضِّل الرجوع إلى الخمسين عاماً من الفضيلة، حتى ولو أنها تقود إلى دوامة مِن الفساد والانحطاط، على أن أخسرها. من الحسن أنني تعرفت عن كثب على مرحلة يُمكن مقارنتها مع الحركات الإصلاحية الكبيرة التي شهدها التاريخ الإنساني. يمكن إجراء تلك المقارنة حتى ولو أنه من الغباء أن آمل في أن تكون تلك المرحلة غير انتقالية مثل سابقاتها. لا

يمكن أن نتوقع الاستمرار والديمومة لأي مـؤسسة يديرها بنو البشر. لكن ليس من الصعب تقييم التغيـر الذي طرأ على المملكة تحت وطأة الرخاء الذي أصابها خلال فترة حياة مؤسسها العظيم.

يهتم المكتشف الجديد ولعلي هنا أقـول: الدارس والطالب العربي في الصحراء بمغريات هذا المريد. ومرة ثانية أكرر بأنـني أنتمي للرعيل الأول الذي عرف الجمل واستخدمه، وسافر في أرض عذراء لم تدخلها التطفلات الأجنبية بعد. إنني على علم تام بأن العديد من الشـخصيـات والمجموعات التي تمـثل أرامكو وتمثل حملة التخلص من الجراد لديها القدر الكبيـر من المعلومات المشوقة التي ستنشر في يوم من الأيام، خاصـة بعد أن تزول عنهم القيـود المفروضة على حريتـهم. إن أفضل مثال على هذه المعلومات هو الكتاب الذي أعد وطبع باللغة الإنجليزية والعربية من قبل قسم البـحوث في شركة أرامكو تحت إشراف الدكتـور جورج رنتز الذي وزع على نطاق محدود جداً في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، وكذلك في محمية عُمَـان وفي واحة البريمي المتنازع عليـها. يعد رنتـز الشخصـية القيـادية في الجيل المعاصر التي تقوم بدراسة واقع وحقيقة الجزيـرة العربية الحقيقية التي لا تزال قائمة خلف زيف من الحضـارة الغربية المتزايد. أعـتقد أنه ربما يوافقني رنتـز في تمحيص «القول الفصل» الذي لا أساس له والذي أورده الناشر لصحـافة جامعة كورنيل في كتـاب بعنوان «شبه الجـزيرة العربية» للكاتـب ريتشارد الثـاني. إن ساغنر، وعلى الرغم من الأخطاء التي تتعلق بالحقائق والتفسـيرات الأخرى، يقدم براهين مروعة تتعلق بالـتأثير الأمـريكي في التطور الذي تشهـده البلاد، وعلى التدخـل الفعلي الأمريكي في ذلك التطور. يدعـون بأن الجزيرة العربيـة التي وصفها جـون فيلبي آخذة في التلاشي السريع، وأن الكتاب مشتمل على حـقيقة الجزيرة العربية والحياة

المتعددة الأوجه فيها، وعلى الناس والسبل المعيشية الجديدة". وإذا كانت تلك هي الحقيقة لحد ما فإن العناصر المزركشة في حياة هذا البلد قد انحسرت في الأماكن النائية من الجزيرة بعيداً خلف كل ما يمكن أن تصل إليه يد الإنسانية الأمريكية ويد طلبتهم من العرب، تماماً كما تراجعت غزلان الصحراء بأعداد يرثى لها، وانحسرت في أماكن لا يمكن لسيارات العصر الحديث أن تدخلها.

إن برترام توماس كان من بين أولئك الذين عرفوا الجزيرة العربية القديمة، تلك الصحراء التي كانت على طبيعتها إذ غادرها قبل دخول الأساليب الجديدة إليها. نكث في حبه لها وغادرها ليتابع نشاطاته في مكان آخر إلى أن وافته المنية في عام ١٩٥٠م. حدث أيضاً وأن نكث ولفرد ثيسجر في حبه القديم ليهيم على وجهه بحثاً عن مفاتن جديدة. كان ثيسجر واحداً من النشطاء في حملة القضاء على الجراد وواحداً من الرحالة البارزين الذين جابوا الجزيرة العربية خلال سنوات كرسها من عمره لخدمة الصحراء. كان عليه أن يقدم عرفانه للمملكة فكتب كتاباً تأخر نشره عن موعده، وكان الأرجح أنه لن ينشر أبداً. ولعل جل ما يمكن أن نتوقع من كتاباته هي المقالات التي كتبها عن تجربته في التجوال في الجزيرة العربية وأطرافها، وكذلك في الربع الخالي، لكن قلمه لا يتحرك بنفس البراعة التي تتحرك بها قدماه العاريتان على رمال الصحراء.

يجدر بنا أن نتوجه بالشكر إلى الجراد الذي جذب الكثير من محاربيه إلى مجاهل أماكن صعبة. وبهذا الخصوص نشير إلى جي بنكرر وجي بابوف اللذين قاما بعمل جدير بالإعجاب حيث رسما خريطة البحر الصافي من الرمال، وحددوا عليها إحدى الجزر القديمة التي فشلت أنا وأصدقائي البلجيكيين في الوصول إليها في عام ١٩٥١م. وإلى ذلك المكان توجهت طائرة من مطار حضرموت للاطمئنان

عليهمـا. وكان في الطائرة جون حيـويت وفيزي فيـتز جيرالد وكلاهـما أيضاً من حملة مكافحـة الجراد. أسهم هذان الرجلان إسـهاماً كبيـراً في معرفتنا بجغـرافية الجزيرة العـربية وبظروفهـا الطبيعـية. وهنا يجب أن لا ننسى الدكتـور هنري فيلد الذي قام بعـدة رحلات إلى مناطق شمـال الجزيرة العربيـة لاهتمامـه بدراسة علم الإنسان.

ومما لا شك فـيـه أن هناك المزيد من الرجـال الذين سـيـحـذون حـذو هؤلاء الأشخاص الذين سبق لهم أن زاروا الأماكن التي ارتحل عنها أناس من رعايا الجيل القديم. وطالما إنني في سياق الحـديث عن هؤلاء الأشخاص فـأذكر منهم السـير جورج كليـرك والسير آرثر هيـزلرغ الذي سبق لي أن تحدثت عنه في كـتابي «أيام عربية» ووصـفته بأنه سفـير ولاعب كركيت مشـهور أيضاً. أسهم هيـزلرغ والسير نورمان -الذي يشـغل حالياً منصب رئـيس القضاة- في تبـرئتي من تهمة الخـيانة خلال الأوقات العصيبة الماضية من فـترة الحرب. قام هذان الرجلان بأدوار متميزة لكنهما رحلا عن مسرح الأحـداث وإلى الأبد. لم يبق على قيد الحياة العديد من الأشخـاص المذكورة أسمـاؤهم على قائمـة (الخدمة المدنيـة الهندية) التي كنت أنا شخصياً من ضمنها. كما أنه من الـصعب تقفي أثر ومعرفة أحوال كل الأشخاص الذين قـاموا بذلك العمـل الشاق المثمـر والذي توقفت عـن العمل فيـه منذ زمن طويل.

عندمـا قمت بزيارة الهند فـي عام ١٩٤٧م -كـانت تلك المرة الأولى بعد عـام ١٩١٩م- لم يبق الموت على أحد من أقراني ولا على من هم أكبر مني سناً: وهنا افتراض أن السير جورج كننغ هام والسير جورج سبنس كانا العضوين القياديين في تلك الخدمة التي قمنا بهـا بعد أن تحولت سلطة حكم البلاد إلى الأيدي الهندية.

أصبح مساعدي الخاص في ليبيور ويدعى رام شاندرار يشغل منصباً رفيعاً. وفي سياق الحديث عن أصدقائي أذكر رونالد ونفيت الذي كان يعمل في المكتب السياسي الهندي، وكان على علم جيد بمناطق الخليج العربي. ولا يزال هناك متسع للتحدث عن بعض الشخصيات البريطانية التي كانت تعمل في ظل النظامين الجديدين في الهند وباكستان.. ومن المؤكد أن طاقم العمل كله في الوقت الحاضر أصبح من أبناء البلاد، ولكن الانطباع الذي تشكل لديَّ في عام ١٩٤٧م أن التركيبة الرئيسة التي كانت مؤلفة معظمها من الهنود لم تؤثر بأي شكل من الأشكال في التقاليد المتعلقة بالولاء والاعتزاز لبلد يعد واحداً من أعظم مؤسسات العالم. نعم لقد مات مؤسسو هذه البلاد وتم تغيير حراسها، ولكن ذكراهم ستبقى حية على الرغم من الاضطرابات التي يشهدها العالم الجديد. ويبرز من بين هؤلاء الحراس أسماء شخصيات عظام سبق لي أن عاصرتهم مثل: كتشن الذي كان بمنزلة الناصح المخلص الذي لا يمكن أن أنساه. وهنا أذكر أيضاً اللورد هيلي الذي سرت على خطاه، والذي لا يزال بمنزلة النصب التذكاري الحي للمنجزات البريطانية في الهند. قضى بقية سنوات تقاعده في جمع أكاليل الغار من حقول مختلفة، ويشهد على ذلك كتابه بعنوان «مسح في مجاهل إفريقية»، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هيلي يتميز على الأقل بمسحة شباب دائم. أما السير جورج أبل وهو ينتمي إلى جيل أصغر من جيلنا بكثير فقد أسهم في موت الإدارة الهندية البريطانية وسار في جنازتها. فقد بدأ العمل في قطاع الخدمة المدنية الهندية في البنجاب وذلك بعد ثلاث سنوات من تاريخ تقاعدي. مضى على تقاعد السير هيربرت أميرسون حوالي عشرين عاماً، لكن سبق له وأن شغل منصب رئيس منطقة البنجاب مدة ثلاثة أعوام. تقاعد من منصبه بصفته حاكماً على الإقليم الذي

خلفه فيه السير أوبري متكالف الذي شغل فيما بعد منصب وزير الخارجية في الحكومة الهندية قبل أن يتقاعد ويذهب إلى أيرلندا. وفي أيرلندا أيضاً عاش الجنرال آر جي سي برودهيرست الذي ذاع صيته في الأردن، والذي لا يزال قلبه يرنو إلى الجزيرة العربية بعدما استقر في شمال بريطانيا، حيث كان وإف جي بيك باشا يعد في مرحلة من المراحل أحد ركائز الحكم في مناطق عبر الأردن. تقاعد وإف جي وبعد فترة طويلة خلفه الجنرال جي بي ألب ليشغل منصب قائد الفيلق العربي. كما تقاعد السيد جورج بوغ والسير آلان هندرسون وكلاهما زملائي من مدينة وستمنستر سبق لهما وأن عملا معي في الخدمة المدنية والعسكرية.

أما اللورد أدريان والسيد أدريان بولت وكلاهما من الجيل الذي عاصرته في وستمنستر فلا يزالان نشيطان، إذ كان أدريان بولت يعمل بصفته موسيقياً يتمتع بشهرة كبيرة، وكان أدريان يعمل مدرساً للدين في جامعة كامبريدج، وفي الوقت نفسه يشغل منصب رئيس الجمعية الملكية. أما البروفسور هولند والبروفسور رونالد روبيرتسون والدكتور أندروغو والبرفسور بتلر فجميعهم يعملون، لكن كل في مجال عمله، والجدير بالذكر أن البروفسور هولند لا يزال يشغل منصب نائب رئيس الكلية. أم بتلر فيمثل جيل دراستنا الجامعية في جامعة ترينيتي. من دواعي سروري أن أتيحت لي فرصة لقاء البروفسور هولند والبروفسور رونالد روبيرتسون خلال الزيارة التي قمت بها إلى جامعة كامبريدج في عام ١٩٥٤م بمناسبة لقاء فريق المستشرقين والاحتفال وسط جو أكاديمي بالذكرى السنوية الخامسة على عضويتي في ذلك الفريق. وسبق لي أيضاً، وبالتحديد في شهر تموز، أن احتفلت بمرور خمسين عاماً على رحيلي عن وستمنستر، وذلك بحضور حفل العشاء الانتخابي الذي تم في قاعة الكلية، وكان معي ابني الذي احتفل أيضاً بمرور

خمسة وعشـرين عاماً على مغادرته وستمنستر. وكـان من الطبيعي أن يلتقي ابني بعدد من رفاقي أكـبر من العدد الذي التقيت به من زملائي.. علمـاً بأنني التقيت هناك مع الدكـتور رودلف والسيـد أورنولد لكوكس الذي سبق وأن شـغل منصب عضو في البرلمان البريطاني مدة طويلة.

أشعر الآن أن التـحدث عن زملائي من الجيل القديم الـذين لا يزالون على قيد الحياة أسهل من التحدث عن الزملاء الذين رحلوا عنا، ولكن هناك واحد منهم لا يمكنني إغـفـاله وهو بالنسـبة لي مـن أهم الناس الذين شـاركوني رحلـة حيـاتي الطويلة: ففـي الأول من آذار من عام ١٩٥٠م رحلت والدتي عن عالـم شاطرتني فيه سعادة وشقاء الأيام على مدى ستـة وخمسين عاماً قضيناها في إخلاص وحب شديدين لا يمكن أن نجد مثيلاً لهما إلا في سجلات الأسر المحبة المتوادة والمتراحمة مع فارق بسيط هـو أنه لا يوجد في تلك السجلات أي أسرة تـفوق بتوادها الدور الذي عشناه. عاشت والدتي عمـراً مليئاً بالشهامة والفخر، كـانت مرحة في كافة الأحوال والظروف، وتمـتعت بصحـة جيـدة لم تدم طويلاً. فكانت عمـاد الأسرة ودعامتـها الأساسية، وكانت أيضـاً بمثابة الشخصية الـقوية في أسرتنا التي تناثرت أوصالها لفـترات قصار وطوال بسبب تقلبـات الأيام. كانت والدتي في مثل تلك الظروف تعمل على تجمـيعنا، ولم يكن شيء يدخل السعادة على نفسـها أكثر من إحساسـها بأن سنوات الشقاء في بداية عمـر الأجيال التي رعتها وحـافظت عليها بدأت تشهد تكاثر أفـراد الأسرة. ورثت والدتي عن جدتي البيت الذي عـشنا فيه لحوالي أربعين عـاماً في منطقة كـامبرلي، ومن ذلك البـيت انطلق ولداها الشابان ليمـوتا دفاعـاً عن بلدهما أثناء الحرب الـعظمى.. تلك كانت المأسـاة الكبرى في حيـاتها. بـعدها ظل يتـردد على ذلك المنزل ولداها الآخران ومـعهـما أبناؤهـما

وأحفادهما، إذ بقي كل فرد منهم يشعر بأن ذلك البيت هو بيت الأسرة ومسقط رأسه. وفي ذلك البيت تحققت أمنية والدتي: إذ لفظت أنفاسها الأخيرة فيه، وليس في مكان آخر. وفي يوم وفاتها أشرقت الشمس على العالم لترقد روحها في سلام. وبمناسبة ذكراها أقول:

والدتي العزيزة الغالية.. وداعاً لك
تفتحت وفي وقت سابق لأوانه أزهار الربيع
من عريش منزلها لتزين بزهورها
الجميلة النعش الذي احتوى جثمانها
لكن جمال الزهور يتنافر مع أصوات الأجراس
الكئيبة التي نقلت للعالم خبر وفاتك
لم يبق لنا سوى ذكرى الحياة المجيدة التي عاشتها
لتخفف محن الأيام الباقية من عمرنا
وإلى أن يداهمنا الموت ليجمعنا بها في سكون مهيب
سوف لن تموت ذكرى حياتك الفاضلة
طالما أن دمك ينبض ويجري في عروقنا
إننا لا نندب وفاتك، بل نندب حظنا العاثر في
أننا حُرمنا منك ومن حبك وحنانك
في حين نخفي آلامنا عن عيون الناس.. يبقى العالم جاهلاً
لمدى مرارة تلك الأيام، ومدى الحزن الذي يسكن في نفوسنا